ت.غ: أسماء الصخري الغرسي

حروف ثائرة

نسيبة الطبيعة

خواطر

منارة الأفكار
للنشر الإلكتروني

جميع الحقوق محفوظة @ منارة الأفكار للنشر الإلكتروني

يناير 2016

حروف ثائرة

تأليف: أ. نسيم الطبيعة

تصميم غلاف: أ. أسماء الصخري

الموقع الإلكتروني للدار

/http://manaretalafkar.blogspot.com

صفحة الدار

https://www.facebook.com/pages/%D8%AF%D8%A7%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B4%D8%B1-%D9%84%D9%85%D9%86%D8%A7%D8%B1%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%81%D9%83%D8%A7%D8%B1/1042952242382412

صلاة تحت لهيب الشمس

صلت ركعتين...وجلست تقرأ الفاتحة على ذكرياتها المدفونة هناك.

مدّت يدها من بين أنياب الجدار... واستلت حجرين ... وضعت في كف كل واحد من طفليها حجرا... ومدت يدها إلى عنقها تتحسس المفتاح ... اصطحبت طفليها...

ومضت تبحث عن شجرة خضراء تظللها من لهيب الشمس

...

حلم بريء...

أخذ حفنة من التراب...عجنها بحلمه البريء... ولونها بألوان الشمس

وعندما جفّت. . . نظر إليها نظرة وداع. . . ورمى بجانبها سنبلة...

حمل كراسته. . . وقلمه. . . ومضى مسرعا قبل أن تسقط القنبلة

الاختبار الصعب

مللت هذا الصمت الطويل...أستجدي حبات الندى كي تغسلني من همومي...

وأتوسل للشمس ... كي تمنحني شيئا من نورها...

هي الأيام تقتل كل حروفي الجميلة... وتجعلني لعبتها المفضلة...

ولكني لم أمت ... لا... لم أمت...

فما زال قلمي يترنم على ألحان البلابل... ويراقص أوراق الصفصاف والزيزفون..

ما زال قلمي مراهقا... يطارد أجمل الكلمات ... ويغازل الجميلات...

ما زال طفلا يرفل بثوبه الجميل...ينتظر العيد...

الشمس لم تعد تهددني بالرحيل...والقمر ما زال يعيرني بلاغة القول...

سيعود قلمي للثرثرة...

يقطف وردة من خدود ليلى... ويعيد أمجاد عنترة...

سأجتاز الاختبار بنجاح...وأتسلق أغصان الصباح...

وأغني رفقة الطيور... وأرقب الياسمين وهو ينفض خدوده من حبات الندي...

يرفع رموشه المبللة... ويفتح عيونه لخيوط الشمس ... يتثاءب مبتسما...

ويصحو قبل أن يستيقظ العشاق...

فقلمي الذي أتقن يوما الثرثرة...

ما زال يعشق صوت القُبّرة...

ويزرع العشق في القلوب المقفرة

بقايا نخوة...

على نار التشرّد... وجمر الضياع...

رأيتها هناك تجمع بقايا نخوة ميتة...

وتطبخ الدخان...

وتَسقُط قنبلة تُخرس قرقعة الجوع...

وتشتعل البرودة في الأوصال...

وفي كبد المكان...

تجري خلف خيمتها...

تتقيأ جوعها...

وتلفظ كل الحكايات...

وكل العنتريّات...

وكل بطولات الفرسان...

فلا رمح... ولا حدّ سنان...

لا شيء...

سوى مطر يحمل الغبار...

وعتمة تهتك عرض النهار...

لا شيء سوى بقايا سوالف...

عن أمة تحبو خارج المكان...

وخارج الزمان

حكاية أعوامه التسعين...

على سريره الذي أرهقه حِمْلُ السنين...

في تجاعيد وجهه ألفُ حكاية...

وفي خشونة يديه تنبت أشجار من الزيتون...

والصمت يروي حكاية أعوامه التسعين...

هو الصمت الذي ينبئ بالفراغ...

يمد يده... يتحسس... يبحث عن يدي...

يشدّها بصلابة كصلابة أرضنا...

ويسألني:

يا ولدي ، كيف هو زيتوننا؟

وقبل أن أجيبه ينام نومه الطفولي...

فيجاوبني الصمت يكمل حكاية أعوامه التسعين

شعور خاص جدا...

أقبع في زاوية ذلك الليل وحدي...

تعتريني موجات من الصمت...

وأنا لا أعرف كنه هذا العشق...

عشق مجنون لغربة قاتلة...

وما زلت أمضي بهذا الجنون...

أركض لاهثا أطارد ظلي....

مجروح ... مجروح...

تتراقص وحدتي على أنغام جروحي...

أبكي.. ويضحك من أبكاني...

أفقدني البعد شاطئ الأمان...

غريب أنا بين من أحب...

في بحر العتاب تغرق سفينتي...

أعيديني يا ظلمة الليل إلى ضفتي...

خذيني بعيدا عن أنفاس قلمي المثقلة...

يقتلني قلق الاشتياق...

أخاف أن تجف حروفي...

أعيديني يا أميرتي...

قبل أن يرثي الشعراء نبض كلماتي...

أعيديني...

لعلي أجد هناك عشبا...

سقيته بمداد قلمي...

أعتذر يا حبيبتي...

أعتذر إليك يا مدينتي الجميلة... يا عاصمة الضياء... فغربتي باتت طويلة ...وشمسي أسيرة في كبد السماء...كلماتي يا حبيبتي أضحت عليلة ... والقلب يقتله العَناء...دونك توصد الأبواب ... وتُشهر في وجه الورود كلُّ الحراب ... والقلب كله يباب... خراب... مَنْ قصَّ ضفائرك الجميلة...؟ من رمى بها تحت نعال الغرباء...؟ مات فينا الفداء يا جميلتي ... ولم يمت فيك الكبرياء ...جدرانك يا مدينتي... عارية من عروبتها... مذبوحة أرومتها...ليس فيك يا مدينتي سوى الريح ...والبرق ... والمطر...وفي ظلمة ليلك الحالك يحاكم القمر...لا شيء فيك يا حبيبتي يواري عورته الشجر ...وصوتك يا أم المدائن في الصدر انتحر ... وأنين مآذنك يصرخ صوته انفجر:هاتوا الحجر... أين الحجر؟ ...هلك الربيع ...والزهر انكسر ...وكل السنابل باتت في خطر... الجوع يأكل الجوع يا جميلتي ... والقلب انفطر ... تألمي بصمت يا مدينتي ...لا تصرخي... فلا نمتلك أحاسيس البشر... نحن يا مدينتي لا نحب الجبال... بل نهوى الحفر ... لا يجدي العويل يا حبيبتي ... ولا يجدي الصراخ... فحتى حروفي باتت مهملة... ليس فيها زهر ليمون ... ولا سنبلة...صوت الرعد في حروفي انتحر ...نثرت كلماتي تحت نعليك ...

أيا قدس ...وقلمي اعتذر ...

فقد مات فينا يا حبيبتي عمر

أكذوبة الربيع

أمضيت كل الشتاء...

وأنا أرقب عصف الريح وزخات المطر...

وجنون الرعد صار تسلية...

والبرق مجرد زركشات تخادع العيون...

أسكرني الانتظار... وانتهت الحكاية...

وربيعي حلم في رحم عاقر...

لا طفلة تداعب جدائلها الشقية...

ولا طفل مدلل...

وحروفي مثقلة... سكرى...

تبيت في أحضان وطن مكبل....

لتستفيق على أكذوبة جديدة...

بربيع تعرى من الصدق...

وتعود حروفي للنوم على الرصيف...

تهذي ... والبرد قد هد جسمها النحيل...

وعيونها تردد:

تبا لهذا الشتاء الطويل...

وتبا لهذا الربيع...

في الثامن من آذار...

في الثامن من آذار... استيقظتْ مبكرة...

غسلتْ وجهها بنور الصباح... وحملتْ وردة حمراء...

ابتسمتْ ... ثم أسرعت نحو المرآة...

لملمت شعرها...

فشاهدت جرحا في رأسها ... فتذكرت...

قتلتْ وردتها...

وأسرعتْ تعدُّ له كوب الشاي

...---

شمعتي الثالثة...

أمضيت الليل أحتسي كؤوس الأرق...أتذوق لذة الأشواق ...لذة الانتظار ... أنتظر

ولادة النور من خاصرة الظلام...

أشعلت شمعتي الثالثة... لأراك من نافذة عيوني...وأرسم روحك الطاهرة برؤوس أصابعي... فأنا لا أعشق الظلام مثلهم ... ولا يذبحني ضوء الشمس ... حملتك في قلبي منذ سنين ... ياسمينة بيضاء... وغيمة تحمل الأمطار...

جهزت أوراقي ... وأغمضت عيوني بقوة ...لعلي ألقاك في خيالي ... وأنتظر الشمس كي تفك ضفائرها على كتف الظلام... لأتقن مغازلة الحرف... ومعانقة الكلمات ...

وتولد شمسي فجأة مشوهة ... مذعورة ... يطاردها دخان أسود... عذراء ... تحتمي في أقبية الأولياء...

تحمل أكاليل ورود ذابلة ... على أسراب الطيور المذبوحة...

هناك وردة مقتولة... وهنا عويل أزهار... والخريف أسقط كل أوراقي ...

وتنطفئ شمعتي الثالثة...

من الذي فقأ عين الشمس...؟ ومن الذي اغتال أشعتها...؟ هذه الشمس التي كانت تزرع ورودا في حدائق القلوب...

وتلقي تحية المحبة كل يوم قبل أن تخلد إلى النوم...

نعم ... انطفأت شمعتي الثالثة...وهدير الصمت يهاجم الوجوه... ويحتل المكان...

انطفأت شمعتي الثالثة... وأنا مازلت أعانق أحلامي البريئة...

وأظل على موعد ... كي أشعل شمعتي الرابعة... وأنام...

لعلي أرسل لكم مع خيوط الفجر... لمسة حب وحنان...

تعيد النضارة إلى الوجوه الذابلة

عَزْفُ عِظام...

أنا يا سادتي الكـرام...

منسيّ على قارعة الزمــن...

أنا يا سـادتي لا أتقن الكـلام...

أنتم سادة القول وأهل الفطن...

تراقصوا أنتم صحبة الأنـغام...

ودعوا عظامي تعزف لحن الشجن...

زينوا يا سادتي موائد اللئام ...

ودعوني ألوك جوعي والوهن...

كلوا حد التخمة يا سادتي دون فطام...

وارشفوا كؤوس اللهو والفتن...

فأنا مثلكم لا أشبع يا سادتي الكرام...

وهل يشبع من يقتات على بقايا وطن...؟

نحر الخيول

سيف يتلألأ كالذهب...

يتوارى كالعذراء في خدره...

وخيل مسروجة...

سرّحت شعرها وتعطرت بالعنفوان...

صهيلها يعانق الجوزاء...

واصطفت الأكتاف المثقلة بالنجوم...

رؤوس مشعة وأحذية لامعة...

والأغاريد تعلو...

والأرض ترتجف...

وانقبضت الصدور...

والفارس طال انتظاره...

وأشهرت السيوف...

ولا فارس بعد...

وصمتت كل الطبول...

وآلاف العيون تنظر في المجهول...

والشفاه تهمس بصوت خجول:

هل سينحرون الخيول...؟!

السّرّ تحت التراب...

مكان وزمان لا ينفصلان.

والشّمس في كبدِ السّماء ترقبها...

وتخرجُ مريم...

بين الخطوة والخطوة غياهبُ كهف...

وفي رموشها تتعلقُ حباتُ الحزن اللامعة...

تجلس على ذلك الحجر المركون هناك...

وقد أسلمتْ سرّها لتلك الأعشاب اليابسة المتناثرة في المكان...

وتهمسُ بين الفينة والفينة لحبات الرمل...

وتنتظر أن تهمس الريحُ بسر الحياة في تلك الأعشاب...

وأن تمسح تلك النسائمُ الباردة لهيبَ أجفانها المثقلة...

تجول نظراتها تبحث عن عشبة مرت عليها أنغامُ الخرير...

تمضي وقتا هناك...

وسرّها تحت التراب...

هناك بحلته البيضاء...

هي رأته ذات يوم يُزفّ إلى هناك...

وحين ترتدي الشمسُ عصابتَها الصفراء...

ويرتمي الهدوء المتعب الثقيل...

يداعبُ رذاذُ عينيها الترابَ...

وتنحني على ركبتيها...

وتشعل التراب بقبلة حوتْ كلَّ حنين الأرض...

تلملم مريم نفسَها المبعثرة...

وكأنها تستعد للحظة وداع...

تخطو... فيناديها صوتٌ يتسلل في أرجاء جسمها...

تنظر خلفها...

فتلوح من شفتيها ابتسامةٌ هدها الانتظار...

وتمسح الريحُ بيديها الناعمتين على شعرها...

وترفع الغطاءَ عن ذلك السر الدفين: ...

إنَّه ما زال حيّا ...

المفتاح

هنالك في بيت الصفيح...

بيت بنيته من جوعي غرزة. غرزة...

هنالك رضعت أهزوجة الحرمان...

وتقاذفتني أمواج الزمان...

بين حرارة الثلج وبرودة الرمضاء...

واستوطنتْ روحي أشواك الغياب...

وأمضيت الليل أحصي حبات المطر

التي تعزف لحن الموت على سطح الصفيح...

وتتوثّب في رأسي كل ذكريات غبار السنين...

وأشتمّ رائحة التراب المبلل بالدموع...

وطيور تحلق فوق الصفيح...

تتلو سورة الفاتحة....

وتعلن موت جذوري التي تصارع اليباس منذ سنين...

وبين حمرة الدم المهدور...

وبين أنياب الأشواك...

ما زلت ألمح سنبلة القمح الصفراء...

تلوّح برايتها أعلى الجبل...

وكلما نظرت إلى المفتاح الكبير

المعلق فوق باب بيت الصفيح...

غزاني جلال الشموخ...

وازداد الصراع بين د موعي والأمل...

واشتعل فيّ الحلم...

أتناول المفتاح أجس به نبض ضلوعي...

وأتأمل ثوب أمي المطرز بعشب بلادي...

وأنام ورموشي تربت على المفتاح...

ودموعي الساخنة ترسم على كفي حدود الوطن الوليد

الضحيَّةُ تعشقُ جلّادَها...
تضجّ الضحية من هول ما يصيبها...
تتمرّد وتستصرخ من يغيثها...

وترفع الأكفّ للخلاص من وقودها...

وحين ينتشر عبق الزهور في غصونها...

ويقف الحلم شامخا على تخومها...

ينتظر انتصاب أغصان زيتونها...

يستهويها ألمها وأنينها...

ويموت صهيل حروفها...

سأقرأ سورة الفاتحة...

على أمة هكذا شعوبها...

فقد عادت تعشق الضحيّةُ جلّادَها

عندما تميل تكثر حولك السكاكين...

ما دمتَ صلبًا ... بيدك الصولجان...

تنحني لك الرؤوس ... حتى تكاد تتقوس الظهور...

ويصفق لك الجمع المنافق...

وما أن تضيع نبرة حروفك العالية...

ويسقط منك الصولجان...

وحين تكاد تميل...

يصفق الجمع المنافق مرة أخرى...

وتكثر حولك السكاكين

لساني والرقيب...؟

هو الشعور ذاته ... حين يهبط الليل ... ونستظل بعباءته السوداء
هو ذات الشبح الذي يطاردني... ويحصي علي أنفاسي...
أتمتم بكلمات ترتجف...
وأنفث في يدي كي أطرد كل حروف الوطن التي تتلبسني
وأغسل لساني مما علق به من بقايا أنشودة لوطن جميل
صور مبعثرة تغزو أعتاب ذاكرتي...
لا يجمع بينها سوى ذات اللون الأحمر
...أبحث بين ثناياها عن كسرة من خبز الأمل
أسد بها جوعي لوطن أخضر فلا أجد
شيء ما يقمع كل فكرة تتولد خلف حاجز الصمت
أو تطل برأسها من فوق جدار الخوف
يستسلم رأسي المتعب للنوم
أصرخ مفزوعا أبكي على حالي
ثم أستعيذ من وطن يطاردني .... فيعاودني انفعالي
أرى مقص الرقيب فينخرس لساني
ولكن قلبي ظل يدندن : بلادي ...بلادي...بلادي
قلبي هو المجرم الجاني...

فلماذا قرر الرقيب قطع لساني...؟

لا أتقن إلا فن الصمت

طنين في أذني يلاطم موجه شواطئ ذاكرتي
فيبعثر أوراقي المكتوبة
سأسرع قبل أن تفضحني الريح
ألملم أوراقي بسرعة
وأعود أركن في الزاوية المظلمة من ذاكرتي
هدير الموج الصاخب يملأ المكان
وأنا ألوذ بالصمت
أقول في نفسي حين هدأ الموج:
دقق ... أتسمع ؟
أنا أسمع ولكني أهرب من سمعي إلى صمتي
أخشى الخروج من هذا الصمت الذي يلفني
دققت ... ودققت... يخيّل لي أن الصوت قادم من مكان ألفته
الآن أدركت... هو قادم من الشام أو من الشام
تأكدت أنه من هناك ... فرائحة الدم الممزوج بالشموخ تعبق بالمكان
نفضت ثوب الرعب عني وهممت بالخروج من صمتي
ولكنني لم أفلح ... عدت وجلست بين صمتي وصمتي
فأنا لا أتقن إلا فن الصمت

المَخاضُ العسير...

نَزَلَ المطَر...

نَزَلَ البَرَد...

نَزَلَ الثَّلْج...

اغْتَسَلَت الأرضُ في حضن الشَّمْس...

أَشْرَقَ وجْهُها...

واحْمَرَّتْ خدودُها...

واستلْقتْ على بساطها الأخضر...

تحرسُها الورود...

نما الزَّرعُ في كلِّ مكان...

إلا في بلادي...

لم تسرّحْ شعْرَها الأرضُ...

لم ينْمُ فيها سوى الأشواك...

الورودُ لا تنبتُ في أرضٍ تَقْتُلُ الورود...

والأملُ بثوبه المرقَّعِ على شواطئها...

يغسلُ أخمصيه ويَرْقُبُ الأمواج...

والسماءُ حُبلى بالرَّعد...

والمخاضُ عسير...

والأرضُ بانتظار مولودِها الجديد...

وأوراق الشَّجر السّاجدة على الأرض...

تدعو بالخلاص...

لأمٍّ أنْهَكَها المخاض...

فالمخاض عسير

...

عَرَبِيٌّ ورَبِّ الكعبة

حينَ تَعْدو خارجَ الزَّمان والمكان.

تبحث عن بسمة بين غياهب الأحزان

...

وحين تُلَمْلِمُ أحلامَكَ من بين الدّمار

وتفرّ من الفرار إلى أرض كلّها بَوار

...

وحين تَكتُمُ أنفاسَها الحرّةَ الأَقْلام

وتموتُ في داخلها لحظةُ الانتقام

...

وحين يَصيرُ الموتُ في بلادك لُعبة

فأنت ... عربي وربِّ الكعبة

مُحاوَلةٌ فاشِلَة

ترنو عيوني نحوها...

ويهفو قلبي إليها...

تلك الكرة المتدحرجة...

أحاول اللحاق بها...

حلمي يتدحرج معها...

سأجري لاهثا خلفها...

تَخفُّ سرعتُها حينا...

فأنثني على ركبتيّ...

ألتقط أنفاسي...

تتدحرج بهدوء...

يخيّل إلي أنني اقتربت منها...

أسرع قبل أن تفلت مني ثانية...

أمد يدي لألتقطها...

فتهوي في منحدر سحيق...

يلطمها الصخر...

أرجوحة بين الصخور...

محاولة فاشلة...

أنقشها على جدار ذاكرتي
وأقف على حافة المنحدر...
أرقب المنظر من بعيد

...

أبجديّة الحزن

يباغتني الحزنُ كلَّ مساء...

يطوّقني بحضنه...

أمشي فوق المفردات...

أروح وأجيء في ذلك الفراغ...

بين ذاتي وصمتي...

أتعثّر بين المفردات مقيَّدا بعجزي...

لا تستهويني الكناياتُ ولا المجازات...

ولا يرقص قلبي لجمال التشبيهات...

أجلس مع قلمي على عتبات اليأس...

فأنا ما زلتُ أقف على ذات الحرف...

الحرفِ الثاني من أبجدية الحزن...

أحرفٌ وكلماتٌ جامدة لم تتغيّر...

كلمات لا تقوى على مواجهة إعصار الحزن...

وأنا أشعر بالعجز...

فلم أعد قادرا أن أُنبتَ العشبَ بين حروفي...

رغبتي طاغية بالاعتذار...

لأني لم أعد أشعر بحرارة الثلج...

سأعود وأغتسل بهمّي...

وأحاول أن ألملم حروف أبجديتي...

ربّما يكسرني الحزن من جديد...

كي أقوى على نسج حكايتي...

وأتخطى الحرف الثاني من أبجديتي..

هل سينطق الحجر...؟

إذا تنفّس الصبح متثاقلا...

يعتريه السكون والضجر...

وإذا صمتت رياح العزّ...

ولم تداعب أوراق الشجر...

وإذا قُتِلَت الأحلام البريئة

وصارت الكرامة في خطر...

عندها هل ستغضب الأرض..؟

وهل سيعود ينطق الحجر...؟

انْتِحارُ الصَّمْتِ...

ما زلتِ أنتِ حكايتي منذ عصور...
أبحثُ عنك في نصوص الشعر...
بين السّطور...
أحاولُ الخروجَ من عتمةِ الليل...
أتسللُ مع شعاعِ النور...
أحنّ إليك غاليتي...
أحنّ إلى لمسة أمّي...
فكيف العبور...؟
أنت الشمس يا حبيبتي...
أنت القمر...
أنت الجِنانُ والحور...
يا مطرَ السماء...
اغسل وجه أمي...
بشعلة من نور...
سيغزو الأرضَ نورُها...
لنغزلَ في نسيج الحب...
حكايا الدّهور...

سأعيد نظمَ أشعاري...

سأغيّر كل البحور...

لن نجعل الصمت انتصارا...

سنشعل التنور...

سيُهزمُ الصّمتُ...

ستغني الطيور...

وحين نمسح غبار الوجع عن جبينك...

عندها ستنام الصّقور

بين أحضان الزهور

حُبٌّ باللغة الفصحى

...

تدعوه لِتَناولِ القهوةِ في مقهى الجامعة...

تلمّح له عن الحبّ...

فينشد لها أشعارَ العُذريّين...

تَسألُه: كيفَ تنكسرُ القلوب...؟

فيجيب: بالكسرة أو بالياء...

تقول: وكيف أحمي قلبي من الكسر...؟

فيرد: بنون الوقاية...

تحكي عن شواهد حب وعشق...

فيحدثها عن شواهد ابن عقيل....

خَطَّتْ له رسالة...

وضعتها في دفتر محاضراته...

صحَّحَ الأخطاء النحوية واللغوية فيها...

وأعادها في اليوم التالي...

الرِّهان

إنه قَدَرُ المعذّبين بالتّشريد

كلّما لفحتنا ذكرى أيّام شهدت نكبةً أو نكسة...

يذْبُلُ في عروقنا يقين الرّجوع...

أيّها القلبُ المذبوح...

أيها القلب المخلوع من جذورك...

من أرض البرتقال المعلّقِ كالذهب...

ليس لك الآن برتقال ولا زيتون...

سيقتات قلبي على لسع التّرحال...

باتت الحيرة تقتلني...

لا أعرف...

أهي لحظة إعدام الرجوع...

أم هو تفاؤل بنصر يلازم الصّبر...

أو انعتاق يعقُبُ اشتداد الحصار...

هل سأغسل وجهي بنور شمسها قبل أن تغيب...؟

هل سينشر قلبي أحلامه على شواطئها...؟

هل سأغني هناك رفقة الصيّادين...؟

حتما...

ستنبضُ أوصالي بالحياة...

سيطفح وجهي بالبشرى...

وسيبقى الرّهان...

فرسان يتلون آيات في الفجر قبيل الانطلاق...

سيتلاشى ظلام البؤس...

سيزول الزّبد...

وسيبقى الرهان...

رحلت بهدوء

...

ها هي ترحلُ بهدوء...

لا شيءَ سوى رائحة المسك...

فهي للتوّ انتهت من مراسم الحنّاء...

اعتادتْ دائما أن تزيّنَ أعراسَ الشّهداء...

فمن زيّنَها الآن...؟!

وما هذا اللون الأحمر الذي يصبغ المكان...؟!

رحلتْ بهدوء...

بعد أن نسجتْ حكاياتٍ تعيها هذه الأرض...

حكايات لملمتْ مفرداتها من قاموس وجهها المتجعد...

رحلتْ بهدوء...

نخلة شامخة تعلو جبينَها ابتسامة...

ووجهها الملائكي فجرٌ يشرقُ بواقع جديد...

رحلتِ يا أمّ النّهار...

رحلتِ يا جبلَ الصّبر...

فمن سيغزلُ حلمَنا عند الموانئ...؟!

ستذهبُ النّجومُ بعيدا...

ولكنَّ غيابَكِ يبقى...

بلا صوتٍ أو طنين...

وستبقى الأرضُ تذوبُ في الانتظار...

وها هي الأرض تحمّلُكِ أمنيتَها الأخيرة...

فسلِّمِي على كلِّ الشهداء يا أم الشهداء...

وقبِّلِي أرضَ الجنّة...

ستحكي الشّمسُ عن أمٍّ يعجزُ الصّبر عن صبرها...

عن أمّ غنّتْ لولدها وهو يحملُ الموت...

ثمّ رحلتْ بهدوء..

لَحْظَةُ جُنون

...

إلى متى سَيضيقُ الجلدُ عن هذه النَّفسِ...؟

وذلك الحلمُ بالوطنِ الوهمِ ما زال يطاردني...

خدعوني حين جعلوني أرسمُ ذلك الوطنَ في مخيِّلتي...

رسمتُه بريشةٍ طفوليةٍ بريئةٍ...

رسمتُه ونحنُ كالعصافيرِ نغنّي في غرفة الصفّ:

بلادُ العربِ أوطاني...

فلماذا يَنسفونَ حلمي ...؟

ولماذا يُحكم السَّجانُ قبضتَه على حدودِ قلبي...؟

أتذكَّرُ حين كنا نُداعب خريطةَ ذلك الوطنِ الكبيرِ المزعوم...

نقفزُ كالطُّيور نُقَبِّل القدسَ...

ونشتمُّ رائحة العزِّ في دمشق...

ونتذوّقُ حليبَ الكرامة في أرض الجزيرة...

ونرفع هامتنا للحضارة في مصر...

ما زال الحلم هو الحلم...

وها هو الليل يَهبطُ فوق رأسي...

وما زالت تلك الخريطة معلقةً برموش عيوني...

مَنْ سَيمنعني من تحقيق حلمي ...؟
لا يراني أحد...
سأتسلل من وطني إلى وطني...
لا وجود للرقيب...

سأفترش الخريطة...

ها أنا أمسح بيدي على جبين الشام...

وها هي عيوني ترمق عدن...

أين سأبيت الليلة...؟

لم يحتضنني ذلك الوطن يوما...

سأحتضنه أنا بين ذراعي...
سأحتضن الخريطة بحنان...

وأنام على صوت المذياع يغني:

بلاد العرب أوطاني

لأَجْلِكِ أَنْتِ

...

لأَجلكِ أنتِ تعطَّرتْ روحي بشمس النّهار...

وتلوَّنتْ صفحات قلبي بلون الجّلنار...

لأجلكِ خرجتْ لغتي عن حدود معجمها...

وغيّرتْ رسمها الكلمات...

لأجلكِ تسرّب الأمل إلى حروفي...

فتراقص في صفحاتيَ الريحان والزنبق...

لأجلكِ عشقتُ البحرَ...والأرضَ...والناس

فاخضرَّت لقلبي عروقُه اليباس...

أفنيْتُ عمري أبحثُ عن نجمةٍ تائهة في السماء...

تبدّدُ ظلمة القلب المهجور...

فكنتِ أنت الدفءَ...والحنانَ ... والنور...

لأجلكِ أعيش...بل بكِ أعيش...

بين كروم العنب ...والزّيتون... وزهر الليمون

هنالك كان للعشق فنون...وكان للحبِّ جنون

لأجلك القلبُ أَزْهر... لأجلك الريف أَخضر...

لأجلك كلُّ نجوم السماء تغنِّي وتَسْهر...

وكلّما قلب الزمان من عمري صفحةً...

أَحْبَبْتُكِ أكثر...

لأجلك أنتِ...

بطلٌ بِلا قضيَّة

...

يولد الطّفلُ في بلادي رجلا...

يحمل في كفّه شمسا فتيَّة...

يزهر الطّفل عاشقا...

يحمل أحلاما زاهيّة...

ينظر حوله دامعا...

فتضجُّ فيه نفس أبيّة...

ينزل دمعه ساكبا...

يغسل وجه أمه الوفيّة...

يرفع الصَّوتَ صاخبا...

ويدوس أحلامه الورديّة...

يُزجُّ خلف قضبان الموت صابرا...

ثم يصبح صورة رمزيّة...

يبيعه تاجر الموت رابحا...

فيخرج بطلا بلا قضيّة

سَقَطَت الأَقْنِعَة

...

دافئة كانت تلكَ الليلة...

يتحلّقُ الأطفالُ في عشِّ الأسْرَةِ...

ضحكاتُهم تتلألأ في عيونهم...

والطّفلةُ المشاكسةُ لا تنفكّ تقفزُ عل كتفِ والدها

وتلحّ بالسؤال:

ماذا ستكونُ هديّة عيدِ ميلادي غدا...؟

ويجيبُ الأبُ بابتسامةٍ مشرقةٍ:

هي مفاجَأة يا جميلتي...

وتنطفئ الضحكات...

ويخيّمُ صمْتُ النّوم...

وتنامُ الطِّفْلةُ المشاكسةُ في حضنِ والدها...

تحلم بغد يحملُ المفاجأةَ الموعودةَ...

كانت وحوشُ الليلِ تمدّ خيوطَ الموتِ حول البيت...

ونباحهم يجرّد الصّبح من تفاؤله...

وأقنعتهم السوداء تكشفُ عن عيونٍ حاقدة...

انتزعوه من بين عيون أبنائه...

انتزعوه من خفقان قلوبهم...

نظر في زوايا المنزل نظرةَ مودِّعٍ...

وانثنى مقبلا طفلته النائمة...

أشرقت الشَّمسُ متثاقلة...

جلست الطّفلة على عتبات المنزل...

تحلم بهدية عيدِ ميلادها...

هل سيعود...؟ متى سيعود...؟

نعم سيعود بعد أن يُسقطوا أقنعتهم...

ليذبحوه وهو يرى وجوهَهم الحاقدة...

نعم عاد الأسير محمّلا بدمه...

عاد الأسير محمّلا بهدية ربانية...

عاد محمّلا بوسام الشّهادة العظيم...

هل ستحملُ الكلماتُ قدرةً على الوفاء...؟

من يتحمّل الاستماعَ إلى صراخ الطّفلة...؟

من سيجيب هذه الوردةَ التي لم تتفتّح أكمامُها بعد...؟

من سيصمُدُ أمام صرخاتها التي تهزّ جدرانَ المكان...؟

أتسمعون ...؟ أم صمّت الآذان...؟

لا تقنعوها بعالم متحضّرٍ...

فقد سقطت الأقنعة

...

في مهبِّ الرّيح

ضاقتْ بلادُ الأرضِ عليَّ...

أشاحتْ عنّي بوجهها البشوش...

ولقيتني بوجهها العابس...

وصارت خيمتي سلعةً...

وبدا وجهي غريبا بينهم...

سأنْصُب خيمتي هناك...

هناك على حدود وطن لا أعرفه...

على الجهة المطلة على أشجار غرستها أمي قبل سنين...

رسمتْ أمي العجوز بيديها المجعدتين على الرمال...

حدودَ وطن...

هناك نصبتُ خيمتي...

طاردَتْني الرّيح مرّةً أخرى...

واختفتْ معالمُ الوطن المرسوم...

هناك ذُبحت الأحلام...

هناك طارت الآمال في مهبِّ الرّيح...

مسحتُ الرّمال عن وجه أمي...

وحملت خيمتي لأبحث عن منفى جديد

...

صَمَتَتْ في ذاكرَتِي الكَلِمات

أتستغربين...؟

أتستغربين لأنني ما زلت أبتسم...؟!

سأبتسمُ للدنيا ... سأفتحُ ذراعيَّ لأضمَّ أحلامي

رغم الجرح الذي حفرته برحيلك

رغم خنجر الفراقِ المغروسِ بينَ أضلعي

لن أسمح لكلماتي أن تنسج أمل الانتحار

عصفور الشوق صار بلا جناح...

وحرارة الثلج لم تعد تحرقني...

وصمتتْ في ذاكرتي الكلمات...

وانتهى كل شيء...

حتى ذلك الصراع بين قلبي الساذج وعقلي الناضج

سأبتسم...

لم أعتدْ يوما البكاءَ على شوكٍ يجرح

إنني أزجر قلبي ألف مرة...

كلما خفق لذكرى عابرة...

لقد ذرفتُ ألف دمعة...

غسلتُ بها بقايا طيفك في عيوني

فها أنا أبتسم...

أنا لم أنكسر ... أنت لا شيء أخسره...

نعم لم أخسر...

فأوراقي لم تعد تشكو غربتك...

ونور الشمس في ليلي بدأ يلوح...

وها هي الشمس...

ترمي بضفيرتيها الذهبيتين على أعتاب قلبي...

وها أنا تغرد طيور قلبي وتبتسم...

لم أنكسر... لم أخسر...

لم تنطفئ الأنوار بعد...

سيخلد قلبي للنوم...

بانتظار الفجر...

فجر جديد على قلب لم يمت...

فأنا ما زلت أبتسم

وصمتت في ذاكرتي الكلمات

...

غبار الذكريات

...

منذ عشرين عاما...

وما زلتِ وجعَ قلبي ... وحزنَ قافيتي

لا تقتليني مرتين...

ما زلتُ أذكر تلك اللحظة...

حين غمغمتِ بكلمة حب لم تقوليها...

ولم تتمكني من كسر قيود قلبك...

ولم تستطيعي أن تحطي عنك ثوب التقاليد المفروضة...

فلماذا تعودين...؟

لم تعانقيني عناق وداع...

فقام الحزن وعانقني... وما زال يضمني...

نظمت أشجاني كلمات نثرتها بين أوراق دفاتري القديمة

سأنفض الغبار عن دفاتري...

لعلني أجدك في ثنايا حروفي...

لماذا تعودين...؟

عذرا... أنا لم أعد أرى نور الضحى بين الأزهار...

وقلبي رصيف غادره المسافرون

وخريف قلبي لا تبدو له نهاية...

فهل سيزل بها لسانك هذه المرة...؟

هل ستقولينها...؟

لا أعرف إن كنت سأجد مكانا في قلبي بين زحمة الأحزان

لأنقش فيه كلمة حب...

ليتني أستطيع أن أجعل إحساسي مدادا...

يرسم وردة حب...

أعطر بها جبينك كل صباح...

لماذا تعودين...؟

قلبي يقولها مع كل نبضة...

ولكن يدي تشتاق أن تنطق بحنان لمسك

فقوليها ولا تقتليني مرتين...

سأرضى... فقوليها... ولو كانت من بعيد

وإلا...

فلماذا تعودين...؟

هل ستقتلينني مرتين...؟

عرسٌ في السمـاء

كان النهار المثقل بصخبه ... المنهك من وجعه... كان ينفض ثوبه بما فيه من حزن وفرح... من أمنيات وأحلام... من ضجيج وهدوء... من موت وحياة ... وكانت الشمس ترمي نفسها في البحر... لتغتسل من غبار ذلك النهار الثقيل... ولكن البرق الضاحك في كبد السماء كان يخفف أحيانا الحزن من وداع الشمس... وحبات المطر النادفة كانت تمسح جبين الأرض ... تطهرها من كل دنس ...

سرب من الطيور البيضاء يحلق بالمكان... وصخب في السماء... رعد يزغرد بين الحين والآخر يعزف لحن الخلود ...وبرق يرقص فرحا ...

وحبات مطر تنثر وردا ...ورائحة زكية تعبق بالمكان...

لحظات ثقيلة ... حيرة بدت في العيون... وأسئلة كثيرة تزاحمت تقرع بابنا ...ونحن نرقب السماء... والحمام الأبيض يستمر في التحليق فوق تلك البقعة لا يغادرها...

ويا لها من لحظات !...

يقع النسر منتوفا... ينزف دما ... صاح الجميع... مات النسر ... مات

النسر...

اختلط الدم بحبات المطر...

فاحت رائحة الموت... و اعتقدنا أن النسر قد مات... لا ... لا لم يمت النسر...

هوى الحمام مسرعا... توقف الحمام عن التحليق ... وضع الحمام أجنحته...

والتف المكان بصمت مريب... الحمام يحنو على النسر ...

كم كان المشهد غريبا !... نسر جارح يطارحه الحمام الأبيض !...

لم نعد نرى النسر... كان الحمام يلتف حوله ... لحظات ... واستعد الحمام للتحليق

يا الله ...! النسر يحرك أجنحته...

سيحلق... لا ...لن يقوى على التحليق... وبشموخه المعهود يحلق النسر...

نراه وكأننا لا نراه ...

ويطير النسر...ينفض ريشه من الماء فتتساقط حبات مسك...

حلق النسر عاليا... يحيط به الحمام ... واشتد البرق ... ونحن ننظر تارة

إلى الدم المسفوح على الأرض وتارة نحلق بأعيننا نرقب موكب النسر...

الأمطار كانت تفرق من بالمكان.. وكأنها لا تريدنا أن نحتفل معها

فهو عرس خاص ...

لوحنا مودعين للنسر... فرمى إلينا بغصن زيتون... ولوح لنا الحمام...

واستمر البرق... وطبول الرعد ظلت تقرع ... والأمطار تقسو على

الأرض ...

اختفى النسر...وعاد الحمام... تحلَّقَ الحمام الأبيض حول الدم المسفوح

...

ظل يحلق بأجنحته دون انقطاع ... ورائحة المسك تزداد انتشارا ...

عندها أدركنا ... نعم أدركنا...

لقد كانت السمـاء على موعد مع عرس النسر...

اعتذار إلى ولدي....

قَلَمٌ الرّصاصِ سلاح...

وكُرّاسةُ الرّسْمِ يا ولدي...

ترسم وطنا مخضّبا بالدّماء...

وعرضاً مستباح...

فحاذرْ أيا ولدي...

هناك على حاجز الموتٍ...

يعلو النّباح....

لا تمدّ يدكَ إلى حقيبتكَ...

لا تسمح لخصلات شعرك..

أن تداعبها الرّياح....

قبعات سوداء ... وسحنة شيطانيةٌ...

تقتل الأحلام وتقتل الأفراح...

أما زلتَ تحملُ الورودَ في يديك ...؟

أنا من علّمتك الصّفح والسماح...

أعتذرُ يا ولدي....

علّمتك أن تواجه الأشواك...

بيدين ناعمتين....

علمتك حمل الورود....

أعتذر يا ولدي....

علّمتك كيف تزرع سنبلة....

كان عليّ أن أعلمك....

كيف تصنع قنبلة.....

****

فلسطينية العينين ... لم تتغيّر

كانت الحافلة تقلنا... يداعب دواليبها نسيم نابلس...ورام الله...وبيت لحم

ننظر من نافذة الحافلة...فنجد الربيع يستلقي على جانبي الطريق...

والشمس تداعب حبات الندى الساقطة من فم السماء...في منظر لا تكدره سوى تلك القبعات الصغيرة...

ووجوه غريبة على مفارق الطرقات...

وبقلوب تعد نبضاتها الثقيلة...محملة بشوق عمره سنين...نرقب اللحظة التي تتجلى فيها أمامنا...

ترتدي عباءة عربية ... مطرزة بدموع الشوق... معطرة بغبار جدرانها العتيقة...

وتوقفنا تلك القبعات السوداء مرة أخرى...على بعد أمتار من مآذنها...

ولاحت لنا من بعيد...وقد سرّحت شعرها ... وخضبت يديها بألوان أربعة...

لا أعرف لماذا شعرت بخجل شديد...؟! وكأني ألتقيها لأول مرة...

مشاعر مشتتة بين الخوف ...والحيرة...والشوق...

فهي الحبيبة التي لم تفارق طيفي لحظة... وتنام على وسادتي

وبين أضلعي ...أمسح جبينها بيدي...وأحيطها بشوق يمتد بين الأرض والسماء...

ها نحن نترجل من الحافلة...أشعر برجلي ترتجفان...أشتم رائحة الكبرياء

تأملت ملامحها جيدا...هي هي ما زالت...شامة عربية سوداء على خدها...

هي هي حبيبتي لم تتغيّر...تعتلي وجهها سمرة كسمرة الأرض...

وفي عيونها عتب كاد يقلتني...

ودون شعور... انثنيت... وقبلت التراب تحت نعليها...

وقبلت يدها بقبلة حارقة...

ابتسمت في وجهي دون كلام ...وألقت علي كوفيتها...

حبيبتي ما زالت فلسطينية العينين...عربية النبض...

لم تتغير...أنا من تغيرت...وحبيبتي لم تتغير...

إلى حبيبتي القدس التي تمكنت من زيارتها قبل أيّام...

****